تهذيب الاخلاق والتصريح بان الزواج ادنى الى الطبيعة من العزوبة وعدم اطالة زمان التعليم والتهذيب كثيراً الى ما بعد العشرين . وعندها ان الزواج بين الناس ليس الآن اقل مما كان في الماضي ولكن الخطأ تأجيل الزواج او اجتنابهُ بين الافراد المستقلين في الرأي والشخصية. ثم ان هؤلاء اذا تزوجوا لم يخلفوا الكفاية من الاولاد لانهم لا يريدون ذلك لاسباب شتى لاترجع كلها الى الانانية

التربية في انجلترا

وفي غيرها (١)

التعليم الثانوي

اذا بلغت سن الطفل الثالثة عشرة او الرابعة عشرة واصبح بفضل المران في البيت او المدرسة الخصوصية والدربة على العمل فتى قادراً على احتمال معاشرة الغرباء ودفع اذى الخلطاء أُلحق بالمدارس الثانوية وتسمى عندهم بالمدارس العامة (Puplic Schools) وهي كثير غير ان المشهور منها تسع مثل Eton, Harrow, Rugby. الخ . وقد امتازت هذه المدارس بتربية ابناء الطبقات الحاكمة والاسر الغنية فاخرجت بارستون وغلادستون وامثالهما من نوابغ الانكليز وكبرائهم

وهذه المدارس التسع هي التي نفذت فيها لاول مرة طريقة الوصاية التي هي اساس التربية الانكليزية. ولا يسعني في هذه العجالة الطواف بتفاصيل كل واحدة منها فاقصر الكلام على احداها وهي مدرسة Rugby لإجرازها قصب السبق في ادخال اصلاحات هامة في التعليم الثانوي في انجلترا بفضل نبوغ ناظرها الحكيم الدكتور توماس ارنولد . والغرض الاول من التربية في هذه المدارس هو اعداد الطفل لان يكون في المستقبل رجلاً شريفاً شجاعاً ووطنياً عاملاً . ومن المثلين الآتيين يتبين مقدار الارتباط بين طلاب المدارس وذلك الغرض الجليل

(١) بنية المحاضرة التي القاها في دار نقابة المعلمين حضرة الفاضل احمد فهمي بك السروسي المفتش في وزارة المعارف العمومية في اواخر يناير الماضي

(١) كتب احد الطلاب بمدرسة Rugby في صحيفة المدرسة السنوية مقالاً جاء فيهِ : اننا معشر الطلاب نكوّن اجتماعاً حقيقيًّا نعيش فيهِ لا لنتعلم فحسب بل لنتعلم ونعمل ونحيا كاطفال سيكونون في الغد رجالاً

(٢) وقال توم براون في كتاب « Tom Brown School Days » (حياة توم براون المدرسية) وهو كتاب وضعهُ احد خريجي هذه المدرسة أثنى فيهِ على حياة الشاب الانجليزي من بداءتها في المدرسة الى دور الزواج وهو كثير الانتشار بين المتعلمين في انكلترا وكل واحد منهم يقرأ فيهِ صفحة ماضية من حياتهِ الخصوصية وصورة مطوية من تذكاراتهِ المدرسية

قال في الكتاب انهُ وصل الى المدرسة في الساعة الثالثة بعد الظهر راكباً عربة (لان ستة الخطوط الحديدية التي تتقاطع الآن في Rugby لم تكن أُنشئت بعد) وبعد ان استقر بهِ المكان تذكر النصائح التي القاها عليهِ ابوهُ قبل مغادرتهِ البيت وكذلك تذكر مصافحتهُ اياهُ باليد لاول مرة في حياتهِ بدل التقبيل الذي من العادة ان تحيي بهِ الاطفال وفي ذلك رمز الى ان الذي يسلكهُ ابوهُ في المدارس العامة رجل ينبغي ان يحيي بتحية الرجال

اما تلك النصائح التي زودهُ بها ابوهُ فانها آية في الحكمة وغاية في السداد فقد قال ابوهُ : انى ترددت طويلاً في اختيار الكلمة التي اجعلها لهُ عظة ماثلة بين عينيهِ في سفره فقلت في نفسي :

اذا انا نصحت لهُ باجتناب ملهيات الطريق وضبط النفس من الوقوع في المفاسد فربما لا يفهم لما اقول معنى ولعلي بذلك اكون تهتهُ الى ما كان مصروفاً عنهُ واذا نصحت لهُ بالجد في الدرس والتشمير في تحصيل العلوم ليصبح عالماً فليس ذلك غرضي او بالحري ليس ذلك الاَّ جزءاً من الغرض الاكبر الذي انصبهُ لهُ واتمنى ان ينالهُ . وبعد خواطر جالت ثم زالت وقع في نفسي ان اوصيهُ بان يكون رجلاً شجاعاً شريفاً نشيطاً وطنيًّا مريًّا مسيحيًّا (Christian Gentleman) ولا اتمنى لهُ المزيد

من هذين المثلين يتبين ان الغرض الاول من التربية الانكليزية انما هو تكميل النفس بالفضائل العالية وتحليتها بالاخلاق الكريمة اما تكوين العقل وتثقيفهُ بالعلوم والمعارف فليسا الاَّ جزءاً من ذلك الغرض الاسمى

والآن ارى من الواجب ان اقول كلمة عن ذلك المربي الكبير الدكتور توماس ارنولد الذي كان ناظراً لهذه المدرسة اربع عشرة سنة حارب في خلالها كثيراً من الطرق العقيمة التي كانت متبعة في المدارس الانجليزية ونجح في وضع مبادىء جديدة حازت الرضا من الانجليز عامة وسرت من مدرسته الى سائر المدارس الاخرى

اذا تناول البحث مسألة التربية والتعليم في انجلترا فانهم يبدأون باسم توماس مقرونا بالاجلال والاحترام ومع انهُ قد مضى على وفاتهِ نحو ثمانين سنة فهم لا يزالون الى اليوم يقدسونهُ ويعظمون ذكرهُ كما كانوا يقدسونهُ في اول يوم بدا لهم فيهِ سر اصلاحاتهِ الحكيمة التي لم يسبروا غورها البعيد الاَّ بكر الايام ومر الاعوام

كان توماس ارنولد في اول امرهِ فتى خامل الذكر ذا روح متوقدة وغيرة مشتعلة ظل يجاهد في سبيل التربية زماناً دون ان يشعر بنبوغهِ احد وكان ذا نظر ساحر يقرأ في الوجوه ما تكنهُ الضمائر فكان لا يقوى احد ان يكتمهُ امراً او يخفي عنهُ سراً. هذا الى انهُ كان ذا تأثير يشبه تأثير المغناطيس فكان لا يجتمع بهِ احد الاَّ اجتذبهُ اليهِ وسحرهُ بتعاليمهِ .وقد قرأت في دائرة المعارف الانجليزية انهُ لما خلت وظيفة ناظر مدرسة Rugby سنة ١٨٢٨ طلب الى مجلس ادارة هذه المدرسة الالتحاق بها وشفعهُ بشهادة قال كاتبها : اذا وقع الاختيار على المستر ارنولد فانهُ سيغير وجه التربية ويقلبها رأساً على عقب في جميع المدارس العامة في انجلترا. ولقد صدقت فراسة ذلك الكاتب في ارنولد فقد بقي يعالج تربية النشء بما أوتي من حذق ومهارة ويبث فيهم روحهُ ومبادئهُ الجديدة حتى أخرج لبلاده فتياناً شداداً نافعين ورجالاً قادة كانوا هم ابلغ اعلان على فضلهِ وعلو كعبهِ واكبر عامل في اذاعة صيتهِ في اركان البلاد الانجليزية

وكان توماس ارنولد من ذلك الصنف من الشبان الذين يهتمون بالشؤون العامة كل الاهتمام ويتتبعون سير الحوادث في بلادهم بكل نشاط وامعان فكاد لا يمر يوم الاَّ ويؤلف في التاريخ (تاريخ الرومان) ويكتب المقالات الرائعة في المجلات العلمية ويكاتب الجرائد السياسية ثم يجد مع هذا من الوقت ما يكفي لادارة مدرسته ادارة حكيمة

وكان يقول في هذا الصدد اني كلما شحذت ذهني بالمسائل الخلقية وجلوتهُ بالمرانة على الكلام في اهم الامور السياسية عاد ذلك بالفائدة الجمة على مدرستي

وفي سنة ١٨٤١ وصلهُ كتاب من لورد ملبورن رئيس الوزارة اذ ذاك يعرض عليهِ وظيفة مدرّس للتاريخ الحديث في جامعة اكسفورد فقبل شاكراً وفرح لذلك فرحاً شديداً وأقبل الطلاب على درسهِ اقبالاً وكانوا يتنافسون في الحصول على مذكراتهِ وطبعها ونشرها بين الناس

ولكن مع الاسف لم تدم سعادة الطلاب بهِ طويلاً فما هلت سنة ١٨٤٢ حتى وقع غير المنتظر وحدث ما ليس في الحسبان وفوجئوا بنبأ وفاتهِ بذبحة صدرية لم تمهلهُ الاَّ بضع ساعات بُذل في خلالها كل اسعاف وكل علاج ولكن ماذا يفيد العلاج اذا حُمَّ القضاء وجاء الاجل

وقد استولى الطلع على طلاب المدارس الذين كانوا يتفانون في حبهِ واخذوا يتساءلون فيما بينهم عن رحى العمل في المدارس هل تظل دائرة بعد ان وقف محركها الاكبر وخفت صوت سائسها الحكيم . واننا نذكر هنا طرفاً من آرائهِ السديدة في التربية فنقول :

(١) ليس من مذهب توماس في التربية مراقبة الاطفال مراقبة دقيقة وقد قال في ذلك اني ازيد ان اعلّم الاطفال ان يحكموا انفسهم بانفسهم وذلك لعمري خير من ان احكمهم بنفسي

ذلك قول حكيم وفكر ثاقب يجب ان يتدبرهُ ويفهم مغزاهُ اولئك المربون الاتوقراطيون الذين يحاسبون الاطفال على الهمسة ويعاقبونهم على الالتفاتة ويريدون ان يقبضوا عليهم بيد من حديد

يقول توماس ارنولد إن هؤلاء واهمون في فهم رسالتهم اذ ليس الغرض من التربية ان نخرج عبيداً ضعافاً اذلاء بل الغرض ان نخرج سادة أحراراً كبار النفوس يتمتعون بالرأي والحرية التامة في كل ما نعرضهُ عليهم من الاعمال وإن سلبهم هذه الحرية او محاولة سلبهم اياها لموعين الخطل والخطر فلندع الاطفال ينفردون بانفسهم ويخلون بما حولهم ويصرفون قواهم ويجولون فيما بين ايديهم من الاشياء ليتعرفوا السلطة ويذوقوا طعم الامارة ويشعروا من نشأتهم بالتبعة التي هي دائماً قرينة الرياسة ولازمةٌ لها

(٢) حدث في المدرسة مرة اضطراب افضى الى ابعاد بعض الطلبة فقام تومس فخطب فيهم خطبة شهيرة سجلت لهُ في تاريخ التربية قال :

ليس من الضروري ان يوجد بالمدرسة ٤٠٠ طالب ولا مائة ولا خمسون ولكن من الضروري الاَّ يوجد بها الاَّ سادة مهذبون Gentlemen

فكانت خطبتهُ هذه على قصرها برهاناً صريحاً على فساد الرأي السائد إذ ذاك في فرلسا وانجلترا القائل بان المدارس تصلح الطبائع الفاسدة — رأي عقيم لانهُ يجعل المدرسة ملجأ لاصلاح الفاسد وتقويم المعوج او يجعلها بؤرة عفنة في نظر الاخيار الصحاح من الطلاب

وكان هذا الرأي فاشياً الى حد ان آباء الطلبة كانوا يعتقدون انهُ ليس للمدرسة حق في طرد أبنائهم منها الاَّ اذا ارتكبوا اغلاطاً جسيمة اما تومس فكان لا يرى رأيهم وقد كتب العبارة الآتية :

ان اول واجب على كل ناظر مدرسة ان يتخلص من الطبائع العقيمة

قال يتخلص (to get rid) ولم يقل يطرد او ينفي واستعمل كلة الطبائع العقيمة (unpromising) تنبيهاً على انهُ ليس من الضرورة ان يرتكب الطالب هفوة ليبعد عن المدرسة بل يكفي ان يظهر من اختبار غرائزهِ أن وجودهُ في المدرسة لا يفيدهُ وقد يضر غيرهُ بالاحتكاك والمخالطة

ولذلك كان تومس اذا ظهرت لهُ اعراض تلك الطبائع يكتب رجاء الى والد الطالب ان يسحب ولدهُ من المدرسة . والذي يتأمل كلامهُ في هذا المعنى يرى انهُ ينصح بتخريج رجال نابغين ولو لم يتجاوزوا الاصابع عدّاً بدل تخريج عدد عديد من المتوسطين من الرجال . او بعبارة اخرى انهُ يفضل اقلية عالية ممتازة على اكثرية منحطة او متوسطة

وهذا بعينهِ هو قانون تنازع البقاء القاضي ببقاء الاصلح Survival of the fittest الذي كان ينادي بهِ داروِن وهكسلي في الانواع الحيوانية والنباتية

يريد ارنولد ايضاً ان يطبق هذا القانون على التعليم حتى لا يخرج من المدارس الاَّ النابغين الفضلاء الصالحين للبقاء

(٣) كان تومس ارنولد يقول انى اريد ان اجعل من الطفل رجلاً من الوجهتين البدنية والخلقية وهو لا يزال في طور الطفولة حتى يصير هجوم تلك

الغرائز ويتنصر عليها لذلك ترى الفتيان الانجليز يبلغون منتهى نمو الجسم وهم في سن الثامنة عشرة او التاسعة عشرة مع ان النمو الطبيعي للجسم لا يتم عادة الا في سن الثلاثين فكان كل هم ارنولد في المدارس الثانوية الاسراع في ان يربي للطفل عضلات قوية وجسما متينا ليضع فيه نفساً بسيطة جريئة حرة مستقلة معتمدة على ذاتها . ومجموع تلك الصفات هو ما كان يسميه بالرجولية الصحيحة (true manliness) وكان يقول ان غرس بذور تلك الصفات في نفوس الاطفال من حداثة سنهم خير من محاولة وضع معلومات علمية في تلك الادمغة الصغيرة تنسى بسرعة لانها وضعت فيها قبل الاوان

والرجل الذي هذه آراؤه في التربية البدنية كان عضواً في جمعية الرياضة البدنية المسيحية (Muscular Christians) وكان الغرض الذي ترمي اليه هذه الجمعية خدمة الجسم وتقويته الى اقصى حد مستطاع لا للتباهي به او استخدامه في قضاء مآرب شخصية كما كان الحال في الجمعيات الاخرى بل لغرض اسمى وارفع وهو حماية الضعيف ونصرة العدل في العالم اجمع وفتح الدنيا ووراثة الارض ومن عليها وكانوا يقولون :

« اننا نريد ان ننصب انفسنا لخير الانسانية ابتغاء مرضاة الله سبحانه فاول ما نفرضه على انفسنا ان نكون اقوياء السواعد اعزاء الجانب »

ولقد اراد توماس ارنولد برأيه في التربية البدنية واثارة الناس الى العمل بمذهبه فيها ان ينتاش الامة الانجليزية من حال سيئة كانوا عليها اذ كانوا الى سنة ١٨٢٠ منهومين بالطعام والشراب مسرفين في الاخلاد الى الراحة والسكينة سماناً غلاظاً عرضة للسكتات القلبية

ظلت افكار توماس تختمر في رؤوس الانجليز رويداً حتى هبوا من سباتهم وافاقوا من رقدتهم وما جاءت سنة ١٨٦٠ حتى دانوا بالتربية البدنية وأغرموا بحب الالعاب والرياضات واشتدوا في ذلك اشتداداً لم يسبق له مثيل اذ آنسوا من فرنسا يومئذ اهبة واستعداداً فظنوا معهما ان الحرب بينهما واقعة لا محالة

فقام هربرت سبنسر ووضع قدمه في الميدان . وجهر باعلى صوته انه يجب على الانسان ان يكون حيواناً قوياً اذا شاء ان يكون حليف النجاح في هذه الحياة . وان الامة التي تريد ان تتبوأ مقعد صدق بين الامم الراقية يجب

ان تتألف من رجال كالحيوان او اشد منهُ قوة . وان الاحتفاظ بالعافية والحرص على السلامة من العلة فريضة محتمة وقضية مسلمة. وما هو الاَّ ذاك حتى سار على اثره العلماء والحكماء والاطباء والفلاسفة ضاربين على هذه النغمة. قائلين بهذه السنة. ناصحين للجميع باعتناق الرياضة البدنية والعناية بالصحة والاخذ باسباب القوة من الحداثة الى الكهولة وفي الحلّ والرّحلة وفي كل مكان. ولكل احد . وقد قال الدكتور كليمان ديوكس ان قوة الامم وافتدار افرادها على العمل يتوقفان على صحة ابدانهم. واطراد تمرينهم على الرياضات الجسمية. ومراس الاعمال البدنية . فثارت الامة بامرها وفي طليعتها طلبة المدارس والجامعات والاعيان. وانشئت الحمامات في البيوت والمدارس والاسواق العامة . واختُطّت حقول واسعة ملاعب للتنس والكريكت . وغطي سطح البحر بزوارق السباق وملئت الشوارع بفرق الكشافة والمتطوعين ووطد كل النفس على العمل على تربية عضلاتهِ والفرار من السمن فرارهُ من الموت ومحاربتهِ محاربة الوباء . وقد جعلوا هذه الالعاب الرياضية كمدارس منظمة يتعلم فيها الاطفال الرزانة والثبات. والنظر الصحيح الى الاشياء وقوة الحكم عليها . وتُقوّم سجية الاحترام فيهم . وان في طاعتهم لرئيسهم (الكابتن) عن خبرةٍ من امرهم ورغبة من انفسهم لدليلاً على تقديرهم السلطانَ المخول للاقوى والرياسة الممنوحة للاكثر تجربة وخبرة. وتكون تلك الالعاب في الهواء الطلق . في مجالي الطبيعة في الاغوار والانجاد بين الانهار المطردة . والاطيار المغردة. وبذلك الجهد البدني القوي يطهر الجسد من السموم المتخلفة من عيشة السكون والقعود . ويصلح الدم الذي افسده هواء المدينة. اضف الى هذا انها محت من طباعهم كل ميل الى الاسراف في الاكل والشرب. ولا صحة مطلقاً لما قد يتوهم البعض من انهم يأكلون اكثر من غيرهم فان ما يأكلهُ الانكليزي في اليوم على دفعات يأكلهُ المبطنون منا في دفعة واحدة

سأل عبد الملك بن مروان أبا المنور هلاَّ اتخمت قط قال لا قال فكيف ذلك قال لاننا اذا طبخنا أنضجنا واذا مضغنا دققنا ولا نكظ المعدة ولا نخليها

تلك هي الفضائل التي يجنيها الانجليزي من الالعاب يتعوّدُها في المدرسة من صباهُ . وتلازمهُ لِزام الظل مدى الحياة . واثر هذه الالعاب في الاخلاق على

النمط السابق ظاهر لا ينكر. قال بوجميع المربين الانجليز بلا استثناء. وتواصوا به. واغروا الناس باتباعه. حتى سرى حب هذه الالعاب في دمائهم. وتمكن من نفوسهم لا يثنون صدورهم عنها من كبرة. ولا يذرونها من هم. وهذا فوست (Fawcett) في اخرياته قد ذهبت عنياه وكان مع ذلك يتزلج ويركب الخيل. وانتوني ترولوب وقد لوت الشيخوخة من عوده كان يحضر جواده ليصطاد الثعالب. ويعرف كل انجليزي ماكان من امر بامرستون وكلفه بالذهاب الى ميدان سباق ايسوم اذ كانوا يرفعونه الى ظهر فرسه بجهد وتعب. فاذا استوى عليه نسي شيخوخته وملك عنانه وامن حرانه

يقول بيير دي كوبرتن (Pierre de Coubertin):

« ماكان الانجليز من مائة سنة خلت بل من ستين على ما نراهم عليه الآن من شدة تمسكهم بعاداتهم ونشاطهم في الخارج وسهولة انقيادهم الى حكامهم وتفانيهم في حب وطنهم. ولكنهم هبوا من رقدتهم ونشطوا من عقالهم وقطعوا كل صلة بالماضي وبنوا لانفسهم ذلك البناء الشامخ وهذا المجد الطريف الذي لم يشهد العالم مثله. ولا ريب عندي في ان للتربية الصحيحة المؤسسة على الرياضة البدنية الى اقصى حد مستطاع والحرية الحقيقية التامة دخلاً كبيراً في هذا الانقلاب العجيب »

واما الفرنسيون فكانوا يسخرون من هذه الرياضات الجسمية ويعتقدون ان العناية بانماء جسوم الاطفال وتمهد الابدان بالتقوية مفسدة للاطفال اي مفسدة اذ يقولون ان المادة هي معين الشر وعتاد الفساد. وان صفاء البصيرة وبلوغ الارواح درجاتها من الكمال انما يكون باهمال الجسم وكسر شرته واضعاف حيوانيته. وقد غلا بكمال احد فلاسفتهم في مذهب المتصوفة الى حد انه كان يلبس شعاراً من شعر خشن كرؤوس الابر على جلده خيفة ان يخدعه الترف او تلهيه الراحة. واكثر من ذلك انه كان يشد على وسطه نطاقاً من مسامير دقيقة خيفة ان يشعر بلذة التوفيق الى استنباط حل قضية من الهندسة وكان بها مولعاً وعليها مكباً. ولم يقلع الفرنسيون عن احتقار الرياضة البدنية والزراية على من كان يحبها من التلاميذ الا من عهد غير بعيد. انتهى باختصار كثير